

الإسلام والغرب أسباب المواجهة

ووسائل المصالحة

دكتور / محمد دراجي.

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية

-الخروبة-

تمهيد:

ما الذي يجعل ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتجاوبون إيجاباً مع التفجيرات التي مست برج التجارة في نيويورك والبنساغون في واشنطن، ويتنفسون الصعداء، ويبدون مظاهر الارتياح والشماتة لما حصل للولايات المتحدة الأمريكية، رغم أن القتل العشوائي منهي عنه شرعاً، والإرهاب الأعمى مما يناقض أصول الشريعة وأحكام الإسلام؟

وبالمقابل ما الذي يجعل ملايين الغربيين عموماً والأمريكيين على وجه الخصوص، يشاهدون يومياً صور الدمار والتخريب، والقتل الفردي والجماعي، والتهجير من القرى، والطرْد من البيوت، وغيرها من مظاهر الإجرام الذي تمارسه إسرائيل مع ذلك لا يكثرثون، بل يرون شعباً كالشعب العراقي - ومن قبل وبحدة أقل الشعل الليبي - مهدداً بالفناء، ومعرضاً للأمراض الفتاكة، ومع ذلك لا يتحركون، لا يتظاهرون، بل يؤيدون حكوماتهم التي تمارس هذه السياسات ويباركون توجهاتها من خلال تزيكات برامجها في الانتخابات، عدا أصوات قليلة لبعض المفكرين والشخصيات العلمية وكذا جمعيات حقوق الإنسان، والتي لا تغير من واقع الأمر شيئاً ولا تؤثر في صنع القرار.



كل هذه الأمور تقودنا إلى التأكيد بأن الصراع بين الإسلام والغرب، هو صراع حضاري متجذر في لا شعور كل إنسان ينتمي إلى أحد المعسكرين (الإسلام أو الغرب) وداخل في تكوينه النفسي، الأمر الذي يدعونا إلى ضرورة استقصاء أسباب المواجهة، والعمل سويا على تفكيك هذه الأسباب.

وقبل البدء في استقصاء هذه السباب والبحث لها عن حلول، فمن الواجب علينا توضيح بعض النقاط.

1 - إن الغرب لا يواجه أي مشكلة وهو يتقدم لعرض نفسه للآخرين، لأن نسيجه الاجتماعي يتماسك، ورؤيته الحضارية، محددة، فالمؤسسات الثقافية التي تمارس الحوار ليست جزرا معزولة عن محيط النسيج الحضاري الغربي...فهي تمتلك شرعية التمثيل وفعالية التنفيذ.

وخلافا للإسلام، فمن يتقدم للحوار، هل المؤسسات الثقافية، التي يمثلها أهل الثقافة والفكر بعض النظر إذا كانت هذه المؤسسات شعبية أم حكومية، فإذا كانت حكومية فإنها ترعى المصالح الآنية للحكومات وتكون فاقدة لشرعية التمثيل، وإذا كانت شعبية فإنها ترعى مصالح الأمة ولكنها تكون فاقدة لفعالية التنفيذ.

2- ما هو الغرب؟ هل هو المسيحية، أظن أنه من المجازفة القول بأن الغرب اليوم مسيحي في تفكيره، ونظرته للكون والإنسان والحياة، ولكن من المجازفة أيضا طرح المسيحية جملة وتفصيلا من مجموع القيم والأفكار المكونة لنفسية وعقلية الإنسان الغربي، بل لا يعني هذا عدم وجود رأي عام مسيحي يؤثر.

3 - هل العرب هو أوروبا وأمريكا وهل يمكن الفصل بينهما أو المراهنة على أحدهما إن الذي نراه هو وجود نقاط مشتركة عديدة بين أوروبا وأمريكا.؟ فأمریکا مرحلة من مراحل تجدد الحضارة الغربية أو دور ذهبي من أدوارها.



صحيح أن أمريكا هي التي تقود الغرب اليوم، وتكاد الأمركة تقضي على الكثير من الخصائص الثقافية والحضارية لشعوب وقوميات أوروبا مهد حضارة الغرب. ويصل صدام المصالح أوجه في كثير من القضايا الدولية كالموقف من ضرب العراق - حاليا - (فموقف ألمانيا وفرنسا، مناقض لموقف أمريكا).

ولكن هذا لا يعني أن وجه التناقض بينهما تصل إلى حد الاختلاف في القضايا الجوهرية، كقضية إسرائيل، فالكل يؤكد بأن إسرائيل وجدت لتبقى، ولكي تبقى يجب أن تكون أقوى دولة في المنطقة، فهذا قاسم مشترك بين جميع الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا... الخ ثم يختلفون في بعض الجزئيات في المسألة الإسرائيلية.

وهكذا فالحضارة الغربية، هي حضارة واحدة موحدة، والظاهر الاختلاف فيها هي مظاهر تنوع لهذه الحضارة ، بل مصدر ثراء لها، ولذلك لما عرف هنتغون الحضارة، عرفها بالقول ((إنها أعلى تجمع ثقافي للناس وأوسع مستوى للهوية الثقافية لشعب، وتحدد بالعناصر الموضوعية المشتركة مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات بآن معا))⁽¹⁾ فالرأسمالية الاقتصادية، والحرية السياسية، وحكم الشعب والدينقراطية، وحرية الفكر، والمسيحية، كلها مقومات الحضارة الغربية الحديثة حتى في إتخاذ القرارات الحاسمة في الغرب، واحب أن أنقل هنا نصا عن المفكر الإسلامي الكبير محمد أسد، وهو بصدر عقد مقاومة بين القيم التي حكمت الخلافة الإسلامية، وتلك القيم التي حكمت الإمبراطورية الرومانية، ففيه وصف دقيق للقيم التي تحكم الغرب اليوم ((... كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية لاحتياج بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سواء ولا في ظلمهم انحطاطا، وإن "العدل



الروماني " الشهير كان عدلا للرومانين وحدهم، ومن البين أن اتجاها كهذا كان ممكنا فقط على أساس إدراك مادي خالص للحياة وللحضارة - إدراك مادي هذب على التأكيد ذوق فكري، لكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية، إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية، لقد كانت أشباحا سكت عن وجودها حفظا للعرف الاجتماعي، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية.

تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة....⁽²⁾

الأسباب الدينية: لا بد من البحث في المسألة الدينية عن جذور العلاقة المتأزمة بين الإسلام والغرب، ذلك أن الدين عامل حاسم ومهم في تكوين نفسية وعقلية الإنسان في كلا المعسكرين، وفي بناء نظريته نحو الآخر، وكثير ما يجتهد كل واحد منهما إذا طلب منه تفسير موقف ما سلكه تجاه الآخر، أن يقدم تفسيراً دينياً. ولكي تتوضح هذا العنصر أكثر، لا بد من التعريف بين الدين كنصوص مقدسة، وتعاليم ثابتة وأحكام قاطعة، بين الدين كفهم لهذه النصوص أو تأويل لها، أو تنزيل لهذه النصوص والسلوك إذا كانت فعلاً ترجمة أمينه صادقة التعاليم الدين وتوجيهاته وأحكامه.

فالإسلام مثلاً دين أقام علاقة المسلم مع غير المسلم، على المستوى الفردي على البر والعدل والإحسان والصلة، فجوز البدء بالسلام عليه والرد عليه إذا كان الآخر هو البادئ⁽³⁾، وجوز إهداء الكافر وقبول الهدية منه⁽⁴⁾، وأجاز زيارة المريض الكافر⁽⁵⁾، بل وأجاز مصاهرته بقيود وشروط⁽⁶⁾، وأجاز للمسلم أن يبيع ويشترى ويقرض ويقترض من



غير المسلم، بل وأن يكون شريكاً لغير المسلم في التجارة، كعقود القراض، والشركات وغيرها⁽⁷⁾، ولما كان الاختلاف في العقائد مشاراً للنقاش والجدل، قنن هذا الجدل ألا يكون إلا بالتي هي أحسن، ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾⁽⁸⁾ بل وبلغ الأمر أن النبي مرت عليه جنازة، فقام إليها، فقالوا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال عليه الصلاة والسلام أليست نفساً؟⁽⁹⁾ هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي (العلاقات بين الدول) فقد أقام الإسلام كذلك علاقته على العدل والانصاف، ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾⁽¹⁰⁾ فلا نقاتل إلا من قاتلنا وسعى للعدوان علينا والرأي الفقهي الراجح في الموضوع، أن الكفار إنما يقاتلون لأجل عدوانهم على المسلمين لا لكونهم كفاراً، وهو الرأي الذي اعتمده شيخ الإسلام ابن تيمية، واستدل له من النصوص الشرعية ومقاصد التشريع ووقائع الفتوحات وأحداث التاريخ الإسلامي⁽¹¹⁾ والأصل الجامع لهذا كله قول الله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . .﴾⁽¹²⁾.

ولكن رغم هذه التعاليم الواضحة، فإننا نسمع ونقرأ في الكتب والمجلات، والمحطات الفضائية، أحكاماً تصدر عن بعض أهل العلم، تجعل كره الكافر ديناً، والإساءة إليه عبادة وتقرباً إلى الله، ولا يتورع هؤلاء في أن يفتوا الشباب المسلم المقيم في الغرب، أن من استطاع منهم أن يخون صاحب الصنع الذي يشتغل فيه



وفعل، فهم كفار وأموالهم حلال لنا أي مباحة، ودمائكم عندما نتقوى تصبح هي الأخرى حلالا لنا... فالكافر لا حرمة له في نفسه وفي ماله.

وجهل هؤلاء أن هذه الأحكام تخص الكافر الحربي، أما الكافر الذي يعيش في كنف المجتمع الإسلامي وتحت حمايته فإنه معصوم الدم فمن قتله قتل به⁽¹³⁾ ومن اعتدى على ماله بالسرقة قطع⁽¹⁴⁾.... إلخ.

وكيف تجوز خيانتهم ورسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في صاع من شعير.⁽¹⁵⁾

وما يتداول هنا من بعض الأحكام الفقهية عن المذهب الحنفي، من جواز التعامل بالربا والعقود الفاسدة في دار الحرب فغير دقيق، لأن المحققين من الفقهاء على أن الاعتبار التي بموجبها تم تقسيم الأرض إلى دار إسلام ودار حرب لم تعد اليوم قائمة، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن جمهور الفقهاء على أن عقد الهدنة موجب لعدم التعرض للموال والأنفس، يقول العلامة الماوردي في كتابه الحاوي الكبير وعقد الهدنة موجب ثلاثة أمور:

الأول: المودعة في الظاهر، وهو الكف عن القتال، وترك التعرض للنفوس والأموال... وقد أجمع الفقهاء على أنه إذا دخل مسلم دار الحرب بأمان أو بمودعة، حرم تعرضه لشيء من دم وفرج منهم - إذ المسلمون على شروطهم...⁽¹⁶⁾ ومن البديهي أن الدول - جميع الدول بلا استثناء - إنما تمنح تأشيرة الدخول كل للراغبين في الدخول إلى أراضيها إما للسياحة أو العلاج أو الإقامة من أجل العمل أو الدراسة على أساس أن يحترم هؤلاء دساتير تلك البلاد ويلتزموا بقوانينها العامة، وفي مقدمتها تلك القوانين التي تحمي أرواح المواطنين وأعراضهم وأموالهم، وبالتالي تجرم الغش والسرقة وأكل أموال الغير بالباطل وهكذا.



ورغم وضوح هذه الأحكام، فإننا نقرأ هنا وهناك، كتابات، تجعل من كره المخالف في الدين، وإعلان بغضه وعقيدة وديننا، فهذا الأستاذ الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، وهو من رجال العلم المعدودين، والمفكرين اللامعين، وصاحب المؤلفات العديدة، والمصنفات المفيدة، يقول في رسالته " الإبطال لنظرية الخلط بين الدين الإسلام وغيره من الأديان" (17) مايلي " ويجب على كل مسلم يؤمن بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، أن يدين الله تعالى ببعض الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، ومعادتهم في الله تعالى وعدم محبتهم وموالاتهم، وتوليهم، حتى يؤمنوا بالله وحده ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (18) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولهذا صار من آثار قطع المولاة بنينا وبنهم، أنه لا توارث بين مسلم وكافر أبداً. (19) والآيات الكثيرة الواردة -في الموضوع، التي أشار إليه صاحب كتاب، السالف الذكر، هي آيات الولاء والبراء، آيات الولاء للمؤمنين، والبراء من الكفار والمشركين، كقوله تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (20)



وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾⁽²¹⁾ وغيرها من الآيات.

فالمقصود بالموالاة في هذه الآيات؟ هل المقصود بها الاحترام والمودة وحسن المعاملة؟ أم أن المقصود بها هي لأية النصرة الحزبية والتحالف معهم؟.

إن تجميع الآيات التي تعرضت إلى هذا المعنى يقودنا إلى القول بأن الموالاة التي نهانا عنها الله سبحانه وتعالى تجاه الكفار هي اتخاذهم أولياء أو أنصارا في شيء تقدم فيه مصلحة هؤلاء الكفار على مصلحة المؤمنين، كما فعل حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه مع كفار وقريش، إذ كشفهم بأسرار خطيرة تضر المسلمين وتنفع الكافرين، أي وقف موقفا ضد مصلحة المسلمين، وعليه فكل ما فيه أضرار بالمسلمين وخذلان للدين فهو من قبيل الموالاة التي نهى الله تعالى عنها، وكل ما ليس كذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا يشملها هذا النهي، لأن الآيات مقيدة ((من دون المؤمنين)) -وهو قيد في اتخاذ كما ذهب إلى ذلك المحققون من المفسرين.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الكفار الذين منع المسلمون من اتخاذهم أولياء، وصفوا بأنهم ﴿ودوا لوتكفرون كما كفروا﴾ ووصفوا بأنهم ﴿استحبوا الكفر على الإيمان﴾ ووصفوا بأنهم ﴿قد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم﴾ ووصفوا بأنهم ((يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء)) ووصفوا بأنهم ﴿قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على



إخراجكم وغيرها من الأوصاف، فهؤلاء كلهم محاربون الله عزوجل وإن أي وقوف إلى جانبهم يعني دعم الكفر وتقويته على حساب الإيمان، ومحال أن يفعل ذلك مؤمن في قلبه مثقال حبة خردل من الإيمان....

فدل هذا على أن الكفار الذين لم يتصفوا بهذه الأوصاف التي تجعل من المتصف بها وحشا ضاريا لا إنسانا كريما - لم ينهنا القرآن الكريم أن نبرهم ونقسط إليهم، وعليه فالموالاتة التي نهينا عنها هي نصرتهم لا مجرد حسن معاملتهم بالبر والعدل والإحسان.⁽²²⁾

ولا بد من التأكيد على أن هذا لا يعني الرضا بكفر هؤلاء، إذ المسلم به في عقائد المسلمين الأساسية أن هؤلاء (اليهود والنصارى) كفار، وأن مصيرهم إلى النار، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ((لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة))⁽²³⁾ وجاء في الحديث الشريف الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال ((ما من يهودي ولا نصراني يسمع بي وبما جئت به ثم لا يؤمن بي إلا حرم الله عليه الجنة))⁽²⁴⁾.

وعليه فما نقرأه في مؤلفات علمائنا أننا القدامى المبحلين، ومفكرينا المقتدرين، من عبارات توحى بالنيل من المخالف في الدين، وتنقص من عقائده وديانته، كقوله ابن القيم على سبيل المثال في وصف اليهود في كتابه ((هداية الحيارى)) ((الأمة الغضبية)، أهل الكذب والبهت، والغدر، والمكر، والحيل، قتله الأنبياء، وأكلة السحت . وهو الربا والرشا - أخبث الأمم طوية، وأرذاهم سجية، وإبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقرة، عادتهم، البغضاء، ودينهم العداوة والشحناء، بيت السحر والكذب والحيل....))⁽²⁵⁾.



وقوله رحمه الله في وصف النصارى ((المثلثة أمة الضلال - وعباد الصليب، الذين سبوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر....، فدينها عبادة الصليبان، ودعاء الصور المنقوشة بالاحمر والأصفر بالحيطان، يقولون في دعائهم يا والدة الإله آزرتنا، اغفري لنا وارحمينا، فدينهم: شرب الخمر، وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبت من الفيل إلى البعوضة، والحلال ما حلله القس، والحرام ما حرّمه والدين ما شرعه وهو الذي يغفر لهم الذنوب وينجيهم من عذاب السعير)).⁽²⁶⁾

فمثل هذا الكلام الصادر عن ابن القيم وغيره من أهل العلم، كابن تيمية، وابي حامد الغزالي، وابن حزم و... إلخ فليس المقصود منه مواجهة المخالف في الدين به عند كل اجتماع أو لقاء، وإنما المقصود منه: إما أنه يندرج ضمن المساجلات التي كانت تقع بين اتباع الديانات المختلفة، خصوصا وأن العصر كان عصر صراع مذهبي وطائفي، أتيح فيها لإتباع الديانات الأخرى أن ينالوا حتى من إسلام في عقائده وأحكامه،⁽²⁷⁾ وهذا وجه آخر من المظاهر المضيئة في سماء الحضارة العربية الإسلامية، فكان من الواجب الأكيد في حق علماء الإسلام وفقهائه أن يردوا على هذه الحملات وأن ينقضوا تلك الشبهات، ويدحضوا تلك الأباطيل بأسلوب فيه شيء من الحدة وربما التجريح، كان مألوفا في تلك الفترة.

وإما أن يكون بيان هؤلاء العلماء المقصود به تقرير المواقف المبدئية التي يجب أن يعتقدها المسلم في هذه القضايا والمسائل، وهي مواقف غير قابلة للمساومة أو المتاجرة فهي حقائق مطلقة جاء بيانها في نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية الشريفة، وأجمعت عليها الأمة الإسلامية سلفا وخلفا.



ونفس الشيء بالنسبة للمسيحية، فالإنجيل يصرح بوجوب محبة الأعداد، ومباركة من يلعنك، إذ جاء في الإنجيل ((احبوا أعداءكم باركوا لا عينكم وأحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم)).⁽²⁸⁾

وجاء على لسان المسيح عليه السلام في الإنجيل كذلك ((من صفحك على خدك الأيمن فأردله خدك الأيسر)).⁽²⁹⁾

فإلي أي مدى كان مؤججوا نار الحروب الصليبية، ورواد محاكم التفتيش، ورموز الفظائع الاستعمارية ملتزمين بهذه الوصايا ومطبقين لها في تعاملهم مع الآخرين، إن البون الشاسع بين المبادئ والتطبيق، ولعل هذا هو ما كان يعنيه بالضبط المسيح عليه السلام حين قال فيما رواه عنه الانجيل ((مملكتي ليست في هذا العالم)).⁽³⁰⁾

وهل يمكننا أن نجاري هنا الزعيم الثائر جمال الدين الأفغاني - رحمه الله حين يذهب إلى أن الديانات الثلاث متفقة تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وأنها جميعها تهدف إلى تحقيق حياة يسودها العدل والأمن والأمان والطمأنينة، وأن الاختلاف والتنافر الحاصل بين اتباع الديانات تتحكم فيه غالبا موجهات خارجية أدت إلى تشويه معالم الديانات وفي مقدمتها الطابع العدواني للحضارة الغربية، ومن جملة ما قاله في هذا الموضوع ما يلي ((إننا لا نجد في شرائع الأنبياء إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، وهو الله، والحث على الفضائل وفعل الخير، والزجر عن الرذائل والشرور، وبعبارة ثانية لا نلقى بها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوا الأنبياء فإننا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق، واتخذوها وسائل لاضرام الفتن، ووسائل لالقاء الإحسان، حتى أمكن للشاعر الغربي أن يقول:



-إنّ الديانات أُلقت بيننا إحنا واورثتنا أفانين العداوات- وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداد، فاستعمله في قتل الأحياء فبئس ما كانوا يفعلون قتل الأحياء)). (31)

وعليه فإن السبيل لتوطيد السلم، وتحقيق السلام، ونبذ الحروب هو اتحاد أهل الأديان، فيقول رحمه الله ((أخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثا دقيقا مجردا عن كل تقليد، منصرفا عن كل تقييد فوجدت بعد كل بحث وتنقيب، أن الأديان الثلاثة: الموسوية والعيسوية والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية وإذا تقادم العهد على الخلق وتمادوا في الطغيان، أو أساءت الكهان فهم الناموس، أو انقصوا عن جوهره، أتاهم رسول بأفراد وتأيد، فأكمل لهم ما أنقصوه وأتم بذاته ما أهملوه. وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خط نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة. (32)

وهذه الأفكار التي يدعو إليها المفكر الثائر السيد جمال الدين الأفغاني، على صحتها في ذاتها، وانسجامها مع مقاصد التشريع، ووقائع التاريخ فإنه ليس من السهل أن تجد طريقها إلى التطبيق، أو تتلقاها نفوس المتدينين بالترحيب، فدونها عوائق، وصعوبات جمة.

وأجد هنا أن أنقل نصا عن المفكر سعيد جودت يصب في هذا الاتجاه، ويخدم هذه الأفكار إذ يقول ((هذا الاتجاه جديد مبتكر قديم وجديد في آن واحد، وصعب تصديقه ورؤيته بوضوح، إنه صحيح وصادق، هل حقا لا تحتاج الحرية إلى الكفاح



الدموي بالأموال والأرواح، ويمكن تحصيلها بمجرد الرغبة فيها كأهل الجنة لهم فيها ما يشتهون وما يدعون.

ليس عليهم إلا أن يشتهوا ويتمنوا ويرغبوا فيعطون ويقدم لهم، إن كشف هذا في هذه الدنيا الأمر يدعو إلى العجب؟.

ولكن ليس بعيدا عن الإنسان الذي يقول الله تعالى أنه سخر له ما في السماوات وما في الأرض، هل في الإمكان كشف هذا الموضوع، أن يكون الحل بدون خسارة لأي أحد بل يريح الجميع؟ هل هذا في الإمكان؟ هل في الإمكان توضيح امكانه واقناع الناس بأن ذلك ممكن وسهل؟ ليس علينا إلا أن نبحت جيدا، وكما تسخرت لنا الصواعق يمكن أن يتسخر الإنسان لخدمة الحق وخدمة الخير وخدمة النافع للناس جميعا وليس لبعضهم، إنه عالم مختلف كلياً عن العالم الذي كونه الفلاسفة والشعراء والذين نسميهم حكماء...))⁽³³⁾

ولم يعد هذا الأمر أحلاما تراود خيالات الفلاسفة المنظرين، أو الأدباء الحالمين، بل أصبح أمرا محسوسا مشاهدا نراه رأي العين، خصوصا لما رأينا كيف هبت شعوب العالم الغربي، مناهضة للحرب على العراق، مدينة للعدوان، داعية إلى السلام، منادية بالأمن، إذ خرجت شعوب العالم الغربي - لأن المناخ الحرية المتوفرة هناك يسمح بذلك وهذا من حسنات الديمقراطية الغربية - في مظاهرات مليونية، تضم الرجال والنساء، الشيوخ والعجائز - وحتى الأطفال - تشجب الحرب والعدوان.

بل وجدنا كثيرا من دعاة السلام العالمي سافروا إلى بغداد، وشكلوا هناك أطواقا بشرية حول المنشآت التي يعتقد أن العدوان يستهدفها ما يستهدف. وهذا كله ينبئ بصحة الضمير الإنساني ومستقبله الواعد.



وهذه الروح الإنسانية جديرة بالتقدير والاحترام، يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله ((إننا نفرق جيدا بين الروح الإنسانية، والروح الاستعمارية في كل أمة، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها، نوالي تلك ونؤيدها، لأننا نتيقن أن كل بلاء العالم هو من هذه، وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك...فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر.

ولترتفع الروح الانسانية ولتنتشر))⁽³⁴⁾

ملامح المشروع الاستعماري وسماته الأساسية :

رأينا فيما تقدم بأن الإسلام كدين لا يبحث عن الخصومة مع الآخرين ولا يحرص على العداء، بل يقيم علاقاته مع الآخرين على أساس من المحبة والعدل، وكذلك المسيحية كما مصرح بها في الإنجيل.

فما الذي جعل الخلاف يستحكم بين الإسلام والغرب، خصوصا في الوقت الراهن، حيث يصنف منظرو الغرب وساسته الإسلام والحضارة الغربية الإسلامية في مقدمة الحضارات التي سيتصادم معها الغرب، رغم وجود عدة حضارات أخرى كالحضارة الكونفوشيوسية في الصين، والحضارة السلافية، وغيرها من الحضارات التي أوصلها صاحب كتاب ((صدام الحضارات)) الأستاذ صامويل هنتغتون، الأستاذ في جامعة هارفارد الأميركية إلى سبع حضارات، لكن الصراع الحقيقي هو الصراع الدائبيين الإسلام والغرب، وسيشتد التنافس بينهما أكثر، وسبب ذلك أن الحضارات الأخرى ليست حضارات دعوية بينما الإسلام يشكل حضارة دعوية، أو بتعبير المفكر مالك بن نبي رحمه الله ((فإن الإسلام يمكن أن يكون عامل البلورة للوحدة الإنسانية)) كما اعتبر بن نبي رحمه الله أن الإسلام يشكل القاسم المشترك الذي تمتد جذوره في القارات الأربعة، وقد بدأ الآن يعبر الأطلسي فهو يقاسم في ملتقى القارات تراث



إبراهيم مع أهل الكتاب، ويمتد وجوده إلى الهند، ويعبر الهملايا إلى الصين، وهو يمتد أيضا إلى القارة العذراء مهد الإنسانية الأولى، وكما أنه يشبث أقدامه مع الحضارة الحديثة في مواطنها العتيدة.

ويشكل هذا الخوف من الإسلام وحضارته، قاسما مشتركا لمنظري الغرب وفلاسفته، وسياسييه، كجلاد ستون، وبرودسكي، وفوكوياما، وهنتغتون صامويل، وبيريان بيدهام، وغيرهم كثير...

ومرد هذا الخوف أن الإسلام دين كما يقول المفكر منير شفيق، في كتابه القيم ((الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر))، قد ركز ((اتجاه الإيمان ضد الكفر، واتجاه الوحدة ضد التجزئة، واتجاه الانسجام والتناغم، بين البادية والريف والمدن ضد التنافر والتمزق، واتجاه الاستقلال والعالمية ضد السيطرة الخارجية والبقية، قد وجدت في الإسلام التعبير الأسمى عنها.))⁽³⁵⁾

وانتهى المفكر منير شفيق إلى تحديد أهم السمات التي تشكل المشروع الغربي المصادم للحضارة الغربية الإسلامية، على النحو الآتي⁽³⁶⁾:

- 1- السيطرة بالعنف على الأمة وإدامة المعنف.
- 2- التجزئة وإقامة الكيانات التجزئية.
- 3- محاربة الإسلام ونشر التغريب الفكري والحضاري.
- 4- تحطيم المقومات الاقتصادية وبناء الاقتصاد التابع.
- 5- إقامة دولة إسرائيل وتكريسها.

وكل عنصر من هذه العناصر يحتاج إلى شرح وتفصيل:

- 1- السيطرة بالعنف على الأمة وإدامة العنف: - إن الفكرة السائدة عند الغرب، أن الحضارة الغربية، هي الحضارة المتفوقة، وهي الحضارة الإنسانية.



وأنها يجب أن تمتد شمالاً وجنوباً، مشرقاً ومغرباً، لتبشر تقيم هذه الحضارة ومبادئها، وأن كل حضارة تقف في وجه طريق هذه الحضارة، يجب أن يمارس ضدها العنف، وتستعمل ضدها القوة، حتى تستسلم وتدخل بيت الطاعة.

ولما كانت الحضارة الغربية الإسلامية حضارة توحيد لله عز وجل، ترفض العبودية لغير الله، وفي مقدمتها عبودية الخوف من البطش والجبارين، فإنها تحصنت بدينها وعقيدتها ودخلت في حروب ومعارك دامت قروناً متطاولة، كسبت البعض منها، وما تزال تنتظرها معارك أخرى...

وعليه فلا بد أن تبقى جذوة الجهاد حية في نفوس أفراد الأمة الإسلامية، ولنا في توجيه القرآن الكريم، ((...فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (37).

وفي الحديث المروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الجهاد ماض إلى يوم القيامة" (38). ولا بد من التأكيد على أن الجهاد في المفهوم الإسلامي ليس مواجهة العدو بالسلاح في ساحات الوغى، وميادين القتال وإنما هو مرحلة من الإعداد والبناء، والتنفيذ تبدأ من غرس الوعي وانتهاء بالمواجهة العسكرية، ولذلك القرآن يقول ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (39)....

والنبي ﷺ "من مات ولم يغز ولم تحدثه نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق" (40). وبديهي أن الجهاد كما قرر فقهاء الشريعة الإسلامية هو من أحكام الإمامة، وبديهي أن الجهاد.



يعلنه إمام المسلمين الأكبر، وحاكمهم الأعلى، لرد العدوان الذي يريد أن يستبيح بيضة المسلمين، وأعراضهم وأموالهم.

2 - التجزئة وإقامة الكيانات التجزئية: من القضايا المسلمة في الفكر الإسلامي أن الإسلام يقوم على دعامين أساسيتين، وهما كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، يقول تعالى ((واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فاله بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها...))⁽⁴¹⁾

فالمسلمون أمة واحدة، ﴿وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾⁽⁴²⁾ ولقد كانت حركة الإحياء الإسلامي، - ورجالها الكبار - سياقة إلى إدراك خطورة التخطيط الاستعماري الهادف إلى تفتيت الوحدة الإسلامية، وضرب الخلافة العثمانية، باعتبارها رمزا يوحد المسلمين - لو شكليا - فعملت جاهدة على بعث فكرة ((الجامعة الإسلامية)) - ورفضت بشدة دعوات الانفصال على الخلافة العثمانية لأنها تصب في بوتقة خدمة الأهداف الاستعمارية - من حيث درى أصحابها أم لم يدروا، لأن الضرورة التاريخية العمل على تدعيم هذه الخلافة وتقويتها ليتأتى لها حماية المسلمين والوقوف في وجه الزحف الغربي المجتاح للعالم الإسلامي.

لقد كتب الأفغاني عام 1883م، مقالا فضح فيه المخطط الذي أعدته بريطانيا لضرب الخلافة العثمانية، جاء فيه ((إن بريطانيا لديها مخطط لإقامة خلافة صغيرة في مكة لصالح أسرة بني عون، التي يتقلد حاليا منصب شريف مكة، وغرض بريطانيا من ذلك هو التخلص من خلاله من وجود قوة عظمى [الخلافة الإسلامية الواحدة] - للسيطرة على جميع المسلمين،⁽⁴³⁾ ولقد أكدت الوقائع التاريخية المتتالية، فيما بعد -

صدق هذه الرؤية وصواب هذا التوجه إذ استطاع الاستعمار إقناع العرب في الجزيرة والشام بالثورة على الخلافة العثمانية، ووعدهم مقابل ذلك أن يمنحهم الاستقلال، فكان ما يسمى



بالثورة العربية الكبرى، وكان لها دور حاسم في هزيمة الأتراك العثمانيين، فهل وفي الاستعمار للعرب عهوده وأنجز وعوده؟

لقد كافأهم جزاء سنمار، إذ في غمرة ثورة الشريف حسين على الخلافة العثمانية، اتفقت الدول الاستعمارية على تقسيم الأراضي العربية فيما بينها وفق ما عرف باسم ((اتفاقية سايس بيكو)) - ووعد وزير خارجية بريطانيا يومها ((اللورد بلفور)) اليهود أو الحركة الصهيونية العالمية بمنحهم فلسطين ليجعلوها وطناً قومياً لليهود.

ولذا كان دعاة الأحياء الإسلامي، وهم الخبراء بحقيقة الاستعمار وطبيعته، صارمين في رفض الحركات الانفصالية على الدولة العثمانية، شديد الاقتناع بأنه لا منقذ للعالم الإسلامي إلا باتحاده في جامعة إسلامية داخل إطار الخلافة العثمانية، باعتبارها رمزا على وحدة المسلمين يجب تدعيمه والحفاظ عليه.

لكن الحاصل أنه مع اتصال المجتمعات الإسلامية المعاصرة مع المجتمعات الغربية الحديثة المتطورة صناعياً وتكنولوجياً وحضارياً، فقد رفدت إلينا بعض التيارات الفكرية والمذاهب العقدية، والأفكار الفلسفية، وكأن لها تأثير كبير في قطاع عريض من الشباب خاصة الذي تلقى ثقافة عربية أو روية حديثة، فتبنى تلك التيارات والمذاهب والأفكار، وراح يعمل جاهداً على نشرها في الوسط الإسلامي، ومن هذه التيارات الفكرية الغربية الوافدة إلينا مع الاستعمار وأذناؤه، التيار القومي (القومية) و(الوطنية) قبلها، ففي أواخر العهد العثماني كان الاتصال قوياً بين الدولة العثمانية وألمانيا في المجالات: السياسية والتجارية والثقافية، فذهبت مجموعة من الطلاب الأتراك إلى ألمانيا ودرسوا هناك، وعن طريقهم انتقلت الثقافة الألمانية إلى الدول الإسلامية، والمجتمعات الإسلامية، وكانت الفلسفة القومية يومها طاغية على الفكر الألماني، فتأثر بها أولئك الطلبة ولما عادوا إلى أوطانهم اتجهوا إلى تأسيس الحركة الطورانية، أو الحركة القومية التركية الحديثة، منسلخين بذلك عن التيار الإسلامي العام، إذ اذكوا في أوقامهم الأتراك الرغبة في الاستعلاء، وأيقظوا



فيهم العصبية، واستغلت القوات الاستعماريات في ذلك الوقت - بريطانيا وفرنسا - هذه الأجواء لأضعاف الرابطة الإسلامية والإخاء الإسلامي العام بين الشعوب الإسلامية، فشرعنا في إثارة العصبية القومية عند الشعوب الإسلامي، وفي مقدمتهم الشعب الغربي، إذ كان لفرنسا وبريطانيا اليد الطولى في نشأة وانتشار القومية الغربية واعتقد الكثيرون من أبناء العروبة اللذين لا يدينون بالإسلام، أن هذا هو الطريق لإزالة الفوارق بين أبناء العروبة جميعا على اختلاف أديانهم، وكان عندهم رد فعل قوي تجاه العصبية التركية التي غذاها ملاحظة الأتراك من جامعة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي... إذا أصبحوا ينظرون إلى القومية الغربية أنها الفلسفة أو عقيدة دينية، أو فكرة كلية شاملة (البيديولوجية).

وهكذا خلصت القومية إلى استبدال الرابطة الدينية التي كانت تجمع بين الشعوب الإسلامية وتكون منها وحدة سياسية، برابطة أخرى لعزل الشعوب الإسلامية عن بعضها البعض عزلا نهائيا، ونسف الجسور التي تصل بينها ومحو روابط الثقافة المشتركة ولغة الدين المشترك والقيم المشتركة وتلغي بذلك الأخوة الإسلامية.

وليت الأمر توقف عن حدود القومية، بل تعداه إلى النظرية الضيقة، حيث أصبح الواحد لا يكتسب ثمة لما يحصل الباقي الأقطار الأخرى من أمته، بل أصبح رجال الساسة في كل قطر يتكلمون عن المصالح العليا لهذا القطر، ولو كانت على حساب الأقطار والإسلامية الأخرى، زاد الطين بلة أن القطر الواحد أصبح في كثير من البلدان الإسلامية معرضا للتفتيت، ومهدد بالتقسيم، بهذه الدعوى أو تلك، وهكذا بلغ الأمر مداه، وفتنت الأمة الإسلامية شذ رمزدر...

مكافحة الإسلام ونشر التغريب الفكري والحضاري :

لقد كان من الأهداف الأساسية للاستعمار منذ وطئت أقدامه بلاد المسلمين، وتمكنه من القضاء على فلول المقاومة هنا وهناك، محاربة الإسلام مصدر القوة للمسلمين، ولعل في المقولة التي اشتهرت على لسان الجنرال بيجو قائد الحملة الفرنسية التي توجهت



إلى احتلال الجزائر، إلى الأب لافجري، ((حاول يا ابت أن تجعل من هؤلاء مسيحيين فإنك إن فعلت فإنهم لن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار)).⁽⁴⁴⁾

من هنا بدأت فصول مرحلة محاربة الإسلام المتعددة، والهدف هو إيجاد جيل ممالئ للغرب، والسييل إلى ذلك هو إقصاء الإسلام من المدرسة، والعمل على إيجاد مدرسة غربية بديلة تكون الثقافة الغربية هي مادة هذه المدرسة، ومنهجها.

ونفس المصير حصل للمنظومة القانونية التشريعية، فبدأت أن كانت الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد إلا وحد للتشريع والقضاء، فبدأ مرحلة الحصار والاقصاء والتهميش للشريعة فحوصرت الشريعة إلى زوايا ضيقة إذ اقتصر على الاحتكام إليها في مجال الأحوال الشخصية فقط.

كما هوجمت دور العبادة، ونظام الأوقاف، وتعرض العلماء والفقهاء والقضاة إلى النفي والتشديد، والمدارس والجامعات الدينية إلى الغلق والتقييد، وبالمقابل فسح المجال واسعا أمام دعاة التغريب الفكري والحضاري، فأصبح مصطفى كمال أتاتورك هو نموذج الحداثة والعصرية في الحكم، ومن سار على منواله كشاه إيران محمد رضا بهلوي، آخرون كثير.

وأصبحت أسماء كلطفي السيد وطه حسين وعلى عبد الرزاق رموزا للفكر الحر، والسعي الحثيث نحو الانعتاق، وكل واحد من هؤلاء قد نال من الثقافة الإسلامية، والفكر الإسلامي، والحضارة الإسلامية نيلا كبيرا، وأجمعت كلمتهم على أن سبب التخلف هو الإسلام، فإذا أردنا التقدم والإزدهار فما علينا إلا أن نطرح الإسلام جملة وتفصيلا، ونعوض بالنواجد على الثقافة الغربية، والحضارة الأوروبية....

وأصبح منظرو الغرب اليوم وساسته الكبار يعلنون صراحة وبدون أي مواربة، أنهم لن يقبلوا قيام نظام إسلامي في أي بلد من بلاد المسلمين، وأنهم لا يتوانون في استعمال القوة،



د. دراجي محمد

وخوض الحروب من أجل إسقاط أي نظام حكم في العالم الإسلامي يقوم على أساس جعل الإسلام مرجعا له في التصور والعقيدة، والأخلاق، والسياسة والاقتصاد والتربية والفكر والفن... إلخ، ولو كان هذا النظام ديمقراطيا حقا ووصل إلى سدة الحكم عن طريق انتخابات حرة ونزيهة.

وما يزال الغرب يدس أنفه عن طريق بعض الجمعيات الدولية، ومنظمات حقوق الإنسان، والمؤتمرات الموجهة، في بعض الأحكام الشرعية، كالحدود الشرعية والأحكام المتعلقة ببناء الأسرة، وقضايا المرأة، والأحكام المتعلقة ببناء الاقتصاد، ويشن هجوما شرسا عليها... وهذا كله جزء من مخطط محاربة الإسلام وإقصائه عن قيادة المجتمع وبناء الأمة وتوجيهها...

ولا بد من التسجيل هنا بأن التغريب قد اكتسح بعض المواقع، وثبت أقدامه في مواطن ما كان يحلم بها في وقت قريب سابق، ذلك أن مجلسا إسلاميا أعلى في أحد البلدان الإسلامية، أصبح وكرا لترويج أطروحات التغريبيين، والهجوم على أحكام شرعية قطعية الثبوت قطعية الدلالة، بدعوى أن تلك الأحكام كانت مرتبطة بواقع اجتماعي واقتصادي معين، أما وقد تطور الوضع الاجتماعي والاقتصادي، فبات عن الواجب أن تتغير تلك الأحكام، ولو صدر هذا الكلام من أي منبر تغريبي لهان الأمر، ولكن أن يصدر من رد هات مجلس من المفروض أن يكون حاميا للدين وأحكامه... فالله المستعان.

ولا يفوتنا ونحث بصدد الكلام على الهجوم العنيف على الإسلام، وأحكامه وتوجيهاته أن نبرز دور دائرتين كبيرتين وظفهما الاستعمار أحسن توظيف للنيل من الإسلام وهما: الاستشراق، والتبشير.



1 - الإستشراق : لا يتوقف طويلا عند الدوافع التاريخية والدينية لنشوء الاستشراق، ولكن الذي يهمنا هو كيف وظف الاستعمار الغربي - القديم والجديد - في صراعه ضد الإسلام، وكيف أصبح المستشرق أداة طبيعة في يد دهاقنة الاستعمار ومنظريه، ولا أدل على هذا من أن معظم هؤلاء المستشرقين، كانوا موظفين في وزارة المستعمرات، ووزارة الخارجية، وقد أوكلت اليهم مهمة إلحاق الهزيمة النفسية بالعالم الإسلامي، التي تكون مهدمة للهزيمة الحضارية العامة، من خلال التشكيك في القرآن والسنة والفقه الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية... إلخ وإيجاد جيل ممالي للغرب وثقافته محتقر لكل ما يمت للإسلام بصلة، وعليه فالاستشراق هو وجه الاستعمار الثقافي.

2 - التبشير : أما الوجه الآخر للاستعمار فهو التبشير، ذلك أن هذا الأخير، لم يكن هدفه الدعوة إلى تعاليم المسيح عليه السلام بالحسنى، وإقناع الناس بها ليصيروا اتباعا لها، وإنما كان هدفه تشكيك المسلمين في إسلامهم لأنه مصدر والقوة فيهم، كما قال المبشر " زويمر" : ومباركة جرائم الاستعمار، يقول العلامة الإبراهيمي ((لو أن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا جاء لينشر تعاليم عيسى بني اتباعه، ويثبت تسامحه بين أشياعه وغير أشياعه، للقي منا التبجيل الإحترام، لأننا أعلم الناس بتعاليم المسيح، ولأننا لا نفرق بين أحد من رسل الله... ولكن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا إنما جاء ليبارك القاتل... ويعاون على امتلاك الأرض، والحاكم على انتهاك العرض، وإنما جاء ليغفر للذين يسفكون دماء الأبرياء ما اقترفوه من ذنوب وآثام...))⁽⁴⁷⁾ ويقول كذلك ((جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل: السيف والصليب، ذلك للتمكن وهذا للتمكن، فملك الأرض واستعبد الرقاب، وفرض وسخر العقول والأبدان)).⁽⁴⁸⁾



4 - تحطيم المقومات الاقتصادية وبناء الاقتصاد النابع:

من أهم معالم المشروع الغربي، تحطيم المقومات الاقتصادية للأمة الإسلامية، إذ اجتهد ساسة الاستعمار في القضاء على النموذج الاقتصادي الذي وجدوه في البلدان الإسلامية، والذي كان يوفر الاكتفاء الذاتي في المأكل والملبس ويوفر كثيرا من الحاجيات للشعوب الإسلامية، ويجعلها في غنى عن غيرها من الدول.

أما المشروع الغربي فلما قام بالقضاء على ذلك النموذج فقد جعل الشعوب الإسلامية، والدول الإسلامية في حالة تبعية كاملة للاقتصاد الغربي، ومع تطور الوضع الاقتصادي العالمي، وظهور العولمة الاقتصادية بكل ما تعنيه من شركات متعددة الجنسيات، وتصدير رؤوس الأموال، واستيراد المواد الخام، فقد زادت معالم التبعية الاقتصادية، وأصبح المطلوب فقط من الدول الإسلامية هو توفير المواد الأولية والأيدي العاملة الرخيصة، وأن تكون سوقا استهلاكيا كبيرا للمواد التي تنتجها الشركات المتعددة الجنسيات، وهكذا الذي يستفيد من خيرات العالم الإسلامي هو الغرب وشعوبه فقط، ولقد أدرك دعاة الأحياء الإسلامي باكرا هذا المخطط الغربي القائم على النهب لخيرات العالم الإسلامي واقتصادياته، فدعت صراحة أن يتمتع شعوب العالم الإسلامي بخيرات بلدانهم، ورفعت شعار ثروة المسلمين وليست لغيرهم يحتكرها ويتمتع بها، وفي هذا الإطار يقول السيد جمال الدين الأفغاني ((ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها، وهي نفص اليد من رؤوس الأموال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس أموال إسلامية وفوق جميع هذا، هي تحطيم نواجد أوروبا، تلك النواجد العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين،



وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك والعقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالية على الغرب)).⁽⁴⁹⁾

إقامة دولة إسرائيل وتكريسها: إن محصلة المشروع الغربي في المنطقة هو زرع جسم غريب في مركز أو قلب العالم الإسلامي، يكون هو الضامن لتحقيق كل أجزاء ومعاليم المشروع الغربي في المنطقة، ولذلك فكر نابليون بونابرت في أواخر القرن الثامن عشر في إيجاد دولة لليهود في فلسطين⁽⁵⁰⁾ وفي عام 1917 تحقق لهذا المشروع فيما عرف باسم وعد بلفور، وهو التزام وزير خارجية المملكة المتحدة بمنح اليهود وطناً قومياً لهم في فلسطين، وهذا التصرف بعلم ومباركة كل الدول الأوروبية، ومنذ تلك الفترة ودولة إسرائيل تعتبر امتداداً للدول الأوروبية وأمريكا في المنطقة، تلقى الدعم والتأييد والحماية، إلى درجة أن يصرح أحد رؤساء الولايات المتحدة، مخاطباً وفداً إسرائيلياً بالقول ((بوسعكم أن تبقوا مطمئنين إلى التزامنا بالمحافظة على تفوق إسرائيل النوعي)).⁽⁵¹⁾

أجل إن الحارس الأمين على المشروع الغربي في قلب العالم الإسلامي ومركزه هو إسرائيل وهذه هي المهمة الموكلة إليها، ولكي تحقق هذه المهمة بنجاح يجب أن تكون متفوقة في العلم والتكنولوجيا، متفوقة في القوة العسكرية، متفوقة في القوة الاقتصادية، يجب أن تكون فوق القرارات الدولية والشرعية الأممية.

الهوامش

- 1- الإسلام والغرب والديمقراطية، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، ص. 26.
- 2- الإسلام على مفترق الطرق، محمد اسد، ترجمة الدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط2، 1948، ص. 34.
- 3- تفسير المنار، ج5/ص. 313.



- 4- فتح الباري، ج 5/ص 232
- 5- الولاء في القرآن، دكتور محمد دراجي، ص 72.
- 6- تفسير محمود شلتوت، ص 292 وما بعدها.
- 7- مواهب الجليل من أدلة خليل، أحمد بن أحمد المختار الجنكي الشنقطي، ج 4/ص 22.
- 8- العنكبوت/ 46.
- 9- متفق عليه، وحول اختلافات الفقهاء في المسألة انظر نبيل الوطار ج 5/ص 70.
- 10- البقرة/ 190
- 11- انظر التحليل الرائع للشيخ محمد أبو زهرة لرسالة القتال لابن تيمية.
- 12- الممتحنة / 8.
- 13- هذا رأي الخنفية وهو الأوفق مع مقاصد الشريعة، انظر الجامع الأحكام القرآن، ج 2/246.
- 14- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ج 2/ص 246.
- 15- صحيح البخاري.
- 16- الحاوي في الفتاوي، أبو الحسن الماوردي.
- 17- طبع رئاسة غدارة البحوث العلمية والافتاء، ط 1، 1420هـ، (1999م).
- 18- المائدة / 51.
- 19- المرجع السابق، ص 93.
- 20- المجادلة/ 22.
- 21- آل عمران / 28.
- 22- انظر في هذا كتابنا، ((الولاء في القرآن الكريم)) ص 49 وما بعدها، طبعة دار البلاغ، ط 1، 2001م.
- 23- البينة/ 1 - 2.
- 24- صحيح مسلم.
- 25- هداية الحيارى من اليهود والنصارى، ابن القيم، المقدمة.
- 26- نفسه
- 27- تاريخ النظم الإسلامية، د. صبحي الصالح، ص 173.
- 28- الإنجيل.
- 29- الإنجيل.
- 30- الإنجيل
- 31- سلسلة الأعمال المجهولة لجمال الدين الأفغاني ص 266، نقلا عن، جمال الدين الأفغاني، عطاؤه الفكري، ومنهجه الإصلاحية، حلقة دراسية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، عمان ايلول، 1999.
- 32- خاطرات بجمال الدين الأفغاني، محمد المخزومي، ص 69.



- 33- العبودية المختارة، للابوسسية، تعقيب سعيد جودت، دار الآفاق والأنفس، ص. 136.
- 34- الشهاب، الجزء 11 المجلد 13 جانفي 1938م.
- 35- سعيد جودت، الأمة الإسلامية بين الرشد والغبي، في الإسلام والغرب والديمقراطية دار الفكر، دمشق، ط1، 1996م، ص. 122.
- 36- نفسه، ص. 52.
- 37- النساء/ 102.
- 38- رواه أحمد في مسنده.
- 39- الأنفال/ 60.
- 40- صحيح مسلم، باب الإمامة.
- 41- آل عمران، 103.
- 42- المؤمنون/ 52.
- 43- جمال الدين المفترى عليه، د. محمد عمارة، ص. 176.
- 44- الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، د/ تركي رايح، ص. 69.
- 46- عيون البصائر، ص. 86.
- 48- عيون البصائر، ص. 63.
- 49- حاضر العالم الإسلامي، تشكيب أرسلان مجلد 1/ ص. 328.
- 50- الإسلام وتحديات المحيطات المعاصر، ص. 78،
- 51- نفسه ص. 79 نقلا عن الديلي تلغراف، 17 جوان.